مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 11 عدد: 1 السنة: 2022
ص: 596 - 609 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الشخصية الجزائرية في شعر الثورة مفدي زكريا نمـوذجا

Algerian Personality in Revolution Poetry, Moufdi Zakaria as a Model

بشير طلحة *

Bachir Talha

مخبر سوسيولوجيا الاتصال الثقافي

جامعة عمار ثليجي بالاغواط (الجزائر)،

Univerity of Amar Telidji of Laghouat (Algeria)

mn.talha@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/06/29	تاريخ القبول: 2021/10/06	تاريخ النشر: 2022/03/02

ملخص البحث

تناقش هذه المقالة جانبين مهمين، الجانب الأول يتمثل في التطرق إلى موضوع من أهم المواضيع التي تنتمي للعلوم الاجتماعية بتناولاتها المختلفة، والجانب الثاني يتمثل في محاولة المطابقة بين المفاهيم وأبعاد الشخصية على الشعر الجزائري الحديث وخاصة شعر الثورة، وهذا من خلال القراءة التحليلية للنص الشعري لأحد أهم رواد الشعر الحديث والذي ارتبط اسمه بالثورة، هذه القراءة وإن كانت تحاول الغوص في خبايا النص الشعري، إلّا أنّها تستبعد إلى حدّ مّا التوظيفات الحديثة لأساليب ومناهج الدراسة النصية المطبقة في بعض العلوم نظرا للظروف التي أنجزت فيها، إلّا أنّها في نفس الوقت تنطلق من النص وتحليله من خلال آلية التأويل التي يستعملها الباحث (التأويل بالمفهوم العلمي) للنص محاولا إبراز الأبعاد السوسيوأنثربولوجية التي بدت أنّها مهملةٌ، مقارنةً بالأبعاد الجمالية المتضمنة في الأسلوب والتي تكتشف بمجرد قراءتها .

الكلمات المفتاح : الشخصية الجزائرية، سمات الشخصية ؛ شعر الثورة، محددات حضارية.

Abstract :

The present paper discusses two important aspects, the first one consists in addressing one of the most important topics that belong to the social sciences with its different approaches, and the second one is an attempt to match the concepts and dimensions of personality on modern Algerian poetry, particularly revolution poetry. For this purpose we will read analytically the poetic text of one of the most important pioneers of modern poetry, whose name was associated with the revolution. Although this reading attempts to delve into the mysteries of the poetic text, it excludes to some extent the modern uses of the methods and approaches of

* طلحة بشير: mn.talha@gmail.com

textual study applied in some sciences due to the circumstances in which they were applied. However, at the same time This reading proceeds from the text and its analysis through the mechanism of interpretation used by the researcher (interpretation in the scientific sense) in the text, trying to highlight the socio-anthropological dimensions that seemed neglected, compared to the aesthetic dimensions included in the style, which are figured out once they are read.

Keywords: Algerian personality; Personality traits; revolution poetry; cultural determinants

تمهيد :

تكاد تخلو الساحة الفكرية من الكتابات الأكاديمية التي تتناول الشخصية الجزائرية بالدراسة والتحليل بأبعادها المختلفة إلا في النادر القليل من بعض المحاولات التي ظهرت هنا وهناك دون أن تغطّي النقص المسجل في هذا الجانب إذا ما قورن بالدراسات والبحوث التي أنجزت حول مجتمعات أخرى (المجتمع المصري مثلا)، وإن كان هذا النقص الكبير على مستوى الكتابة لا يعكس مستوى طرحه في الواقع، حيث يسجل حضوره القوي من خلال الأحداث والوقائع التي مر بها المجتمع الجزائري والتي استمرت حتى وقتنا الراهن، لذلك تسعي هذه الورقة إلى مقاربة الموضوع نظريا من خلال تقديم نماذج لتصورات مختلفة للدراسات التي أقيمت حول الشخصية الجزائرية، وحصره في الأخير في نموذج حاول تقديم صورة متكاملة عن الشخصية الجزائرية تلخص تبلورها تاريخيا، كما يفرض نفسه كخطاب مرجعي، يحظى بمكانة ضمن النسق الثقافي الجزائري .

أولا: الشخصية الجزائرية: المحددات والخصائص :

إذا كانت الشخصية الفردية تتمايز عن غيرها من خلال خصائص وسمات تميزها عن الآخرين، فإنّه يصدق إطلاقها على" الشعوب والأمم بصفتها أشبه بالأفراد من حيث هي وحدة أو كتلة واحدة متكاملة الأجزاء متجانسة العناصر الأساسية والعامة"[1]، فتصطبغ بها وتصبح لها هويتها التي تميزها عن غيرها من الأمم والشعوب الأخرى، وهنا يطرح التداخل بين مفهومي الهوية والشخصية باعتبار أنّ الأولى تتعلق بمقومات الوجود، والثانية تتعلق بمميزات هذا الوجود وخصائصه التي يعرف بها بين الأغيار[2].

وإذا كانت الذات تتبلور في إطار محيط اجتماعي معين يمكّنها من اكتساب الصفات والقدرات المختلفة للتكيّف مع بيئتها، فإنّ الذات تتبلور كذلك في إطار أوسع يساعدها على صقل مكتسباتها

وتشكلها من خلال الإطار التاريخي والحضاري الذي يُكسبها معنىً تتحدّد من خلاله وتحدّد علاقتها بالآخر، بل تدخل في عملية تفاعل مع الآخر انطلاقا من هذه العلاقة، فإنه يمكننا التمييز بين مستويات مختلفة من الشخصية ومعانيها، فالشخصية في مستوى أول هي الذات المكتسبة للصفات الوراثية البيولوجية، والشخصية على مستوى ثانٍ هي المتشكلة في الإطار الاجتماعي المعروفة بضمير الجمع "نحن"، والشخصية في مستوى ثالثٍ هي المتشكلة في إطار تاريخي حضاري ساهم فيه التاريخ والوجود، وسنركز في حديثنا على البعد الأخير وهذا وفق الطرح التالي:

ثانيا: البعد التاريخي الحضاري:

المقصود به الخصائص والمميزات التي تميزت بها الذات الجماعية خلال الحقب التاريخية وآليات تحديدها، وعليه فإنّ الحديث عن الشخصية الجزائرية يدفعنا للحديث عن المؤثرات التاريخية والحضارية التي تشكلت على ضوئها الشخصية الجزائرية، ولعل هذا العنصر يعتبر من العناصر المهمة في رسم سمات الشخصية الجزائرية التي استطاعت أن ترسخ مع الفترات التاريخية المتتالية، ويظهر ذلك في مدى مساهمة الآخر وانكفاء الذات عن تقديم أي صورة تخصها، عدا ما أثر حول مصطلح "الأمازيغ" الذي بقي ثابتا بمدلولاته العميقة الدالة .

فكلمة "أمازيغ" تحمل معنى النبل والشهامة والإباء، وقد يكون ذلك ناتجاً من مجرد الاعتزاز بالنفس من قبل "أمازيغ" لأن الشعوب تتخذ عادة من أنسابها عنوانا للعزة والمناعة[3]، فهو يحمل في طياته معاني التضخيم للأنا ولا يحدث ذلك إلا عند محاولة إظهارها على حساب الآخر، بخلاف ذلك لم يترك الأمازيغ تحديداتٍ لشخصياتهم عبر التاريخ إلا ما أُثر عن ما كتبته الشعوب الأخرى حولهم، ويقول "محمد شفيق" عن ذلك إنهم سكتوا وقتا طويلا[4]، ونحن نجهل للان سبب هذا السكوت .

وكان ما وصلنا هو كلام الرومان عنهم من لدن مؤرخيهم الذين عاصروا الأمازيغ، رغم أن هناك فترة تاريخية مهمة أهملت، وبقصد كما نرى ذلك، فلم يكن الأمازيغ أبعد عن إرساء دعائمها وصناعة حضارتها التي نافست الرومان، وهي الحضارة القرطاجية، فمفهوم الاحتلال خلال هذه المرحلة كان أبعد ما يذكر كما اتفق على ذلك المؤرخون، والأبعد منه هي تلك الأساطير التي بنيت حول تأسيس تلك الحضارة من طرف الوافدين الفينيقين الذين يتجاوز عددهم مئةَ فردٍ في بعض المراجع بينما ذكرت مراجع أخرى أقل من هذا العدد .

إن الحضارة تبنى على مقومات يلعب فيها الزمن العامل الحاسم في إرساء تلك المقومات وأمام هذا الوقت لا يمكننا الحديث سوى عن تمازج اجتماعي وتراكم تاريخي وحضاري حدث خلال هذه المرحلة مكونا بذلك الحضارة القرطاجية التي تختلف في التسمية والمضمون عن الحضارة الفينيقية، ساهم فيه الأمازيغ بشكل كبير ومباشر . بينما خلال المرحلة الرومانية تعتبر كتابات المؤرخ الروماني سالسطيوس من بين أهم الكتابات التي قدمت وصفا دقيقا عن الأمازيغ، (ولد سنة 86 قبل الميلاد ومات سنة 30 م وتولي ولاية افريقيا الرومانية من سنة 45 إلى سنة 46) وقد عرف بلاد الأمازيغ معرفة مباشرة وعهد حروب يوغرطة وألف كتابا بنفس العنوان، وذكر فيه أصل البربر، ونقل لنا الكثير من أخبارهم وعاداتهم ولم يقتصر على معارفه الشخصية ومشاهداته ومروياته بل اعتمد أيضا على من تقدم من المؤرخين اليونانيين"[5].

وقد قدم لنا وصفاً للأمازيغ أو من أطلق عليهم اسم الليبيين ونعتهم "بأنهم شعوب نفورة مخشوشنة يأكلون لحوم الوحوش ويرعون العشب مثل القطعان، ولا يعرفون قيداً أخلاقيا ولا وازعا قانونياً ولا سلطة أميرٍ، وليست لهم منازل قارة فهم يسيحون في الأرض على العمياء مغامرين حتى إذا ما جنهم الليل آووا إلى حيث أمكن "[6].

من خلال هذه الفقرة نستنتج الخصائص المادية التي طبعت حياة البربر حسب الكاتب وهي خصائص تتميز بالترحال وعدم الاستقرار أي ما عرف بظاهرة البادية والخصائص المعنوية التي تم تحديدها ما هي إلا انعكاس لتلك الظروف التي أملتْها البيئة القاسية وحياة الترحال إلا أن هذه التحديدات رغم التأكيد على مراجع استقائها وخاصة من الواقع الذي عايشه المؤرخ إلا أنه لا يمكن إغفال الجوانب التي أشرنا إليها في بداية كلامنا عن الشخصية، فالشخصية تتبلور في إطار اجتماعي وتاريخي مغاير حسب الفترات التاريخية التي تمر بها كل أمة، ولكن نحن بصدد الحديث عن صفات تم تحديدها من قبل الآخر، هذا الآخر الذي بدوره ينتمي إلى إطار حضاري وإيديولوجي مغاير للذات ويقف منها موقف الحكم انطلاقا من قناعاته ومصالحه في كثير من الأحيان .

وتجسد ذلك في كل الاستعمارات التي توالت على بلاد البربر مما أعطى سمة أخرى للسكان المحليين أصبحت فرضيةً ثابتةً تحدد من خلالها موقفهم تجاه أي وافدٍ غازٍ محتلٍّ للبلاد وهي خاصية المقاومة والثورة على أي حالة تسعى إلى استغلال هذه الشعوب والسيطرة عليها، وهذا ما فسر لنا فيما بعد الموقف المتردد لقبول الإسلام في بداياته الأولى كما يذكر ذلك المؤرخون وعليه فالموقف من مرحلة دخول

الإسلام للشمال الإفريقي واستقبال سكانه له محدَّد سلفا حسب المؤرخين إذا اعتبرنا أن هذه سمة من سمات الشخصية الأمازيغية، وهذا ما يفسر كما قلنا القبول العصيّ في بداية دخول الاسلام الأولى، بينما سعى بعض المؤرخين إلى البحث عن العلاقة الأولى التي تم فيها الاتصال بين العرب وشعوب المنطقة، وقدموا لنا بعض الروايات التي يشوبها الضعف ويرفضها العقل .

1. المحددات العربية:

تتحدد الشخصية الأمازيغية من خلال الروايات التاريخية التي تغصّ بها كتب التاريخ حول علاقة البربر بالعرب ووصفها بالإيجابية حيناً وبالسلبية المنفّرة أحياناً أخرى مما يجعلنا نشكّك في مجمل هذه الروايات ومن ما يزيد في هذا التشكيك هو وجود محددات للشخصية الأمازيغية من طرف العرب تبنّت صفات خلال فترات زمنية متأخرة عن الفترة التي رويت فيها، ومن أشهر هذه الروايات هو قدوم وفد بربري على عمرو بن العاص وتوجيهه إلى عمر بن الخطاب والحوار الذي دار بينهم، حين سألهم من أنتم؟ فقالوا: من البربر من لواتة، قال لهم: مالكم حليقو الرؤوس واللحى؟ فقالوا: شعر نبت في الكفر، فأحببنا أن نبدله بشعر ينبت في الإسلام. فقال: هل لكم مدائن تسكنونها؟ قالوا: لا. قال: فهل لكم حصون تتحصّنون فيها؟ قالوا: لا. فقال: هل لكم أسواق تتبايعون فيها؟ قالوا: لا. فبكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ....الخ .

هذه الروايات تحمل في طياتها موقفا ضمنيا حول شخصية البربر، تظهر فيها الخصائص المادية طاغية على المعنوية، وإن كان المراد منها نسبة تحديد هوية البربر إلى العروبة كما وضح النص فقدان البربر لأي مدنية، وقبولهم الشغوف بالإسلام ولكن هذه النصوص وغيرها من حديث عائشة لا يستدل بها لتقديم صورة واضحة عن ما يحمله العرب عن البربر وتقدم لنا النصوص نصا آخر وصف فيه " موسي بن نصير" لسليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي البربر بأنهم أشبه الناس بالعرب لقاءً ونجدةً وصبراً وفروسيةً وسماحةً وباديةً، غير أنهم أغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد"[7].

ينطلق هذا النص من المماثلة بين العرب والبربر في نمط الحياة وفي الخصال وهذا في حد ذاته عامل مساعد لاندماج العنصرين معا، كما طرحته العديد من المراجع، أما من ناحية امتلاك كل الحقوق عدا الحقوق السياسية أو بعضها كما يطرح ذلك صاحب هذا النموذج[8]، فهذا غير صحيح فقد كانت للبربر استقلالية سياسية بعد دخولهم الإسلام دامت قروناً دون تدخّل خارجي من الخلافة في المشرق خلال هذه المرحلة كما قلنا سابقا يصعب وجود نصوص دالة ذات قيمة عملية يمكن تبنيها أو الوثوق

بصحتها، وإذا اعتمدنا عليها نصبح ملزمين بالمفاضلة بينها وهذا ما يرفضه البحث العلمي الرصين بل نستبعد أن يكون هناك تمايز بين الذات والآخر في هذه المرحلة فقد اعتبر البربر أنفسهم جزءا من العرب بل عربا ذوي رسالة مع تبنيهم للإسلام .

تمتد بعد ذلك المحددات من الناحية الزمنية إلى وقت ابن خلدون أكثر المؤرخين معايشة للأمازيغ وأكثرهم معرفةً بهم حيث أفرد لهم في تاريخه جزءا كاملا واصفا لهم ولأحوالهم وأخلاقهم، هذا الوصف الذي بني على أساس مشاهدات واقعية وملازمة لهم وغوص في شؤونهم الاجتماعية مكنته فيما بعد من طرح نظريته وتأصيلها وقد ذكر في مجلده السادس محددا خصائصهم بما يلي

"وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية النزيل ورعي الذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكاره والثبات في الشدائد، وحسن الملكة والإغضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم وقري الضيف والإعانة على النوائب وعلو الهمة وإباية الضيم ومشاقة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها"[9].

2. النموذج الفرنسي:

يبدو النموذج الفرنسي أكثر نضجا من ناحية التحليل، لأنه يعتمد على أسس نظرية ومناهج حديثة لعلوم مختلفة تم توظيفها، إضافة إلى دراسات ميدانية مكنته من الغوص في كنه الشخصية الجزائرية وتحديد سماتها، كما أنه الأقرب من ناحية الزمن بالنسبة لنا، ولكن يبقى رغم ذلك أنه نشأ في إطار نظرة استعمارية "كولونيالية" توظف العلوم والمعارف من أجل تبرير هيمنتها وتوطيدها، وعليه لا يجب إغفال هذا الجانب بالرغم من ما جاء فيه من معلومات ومعارف .

يحدد هذا النموذج كما سماها الذهنية الجزائرية بما يلي :

نظرا لماضيه التاريخي (القمع التركي) ودينه، فان الفرنسي ذو الأصل الشمال الإفريقي هو :

أ – على الصعيد العاطفي :

مندفع متطرف في كل شيء له ردود فعل يقظة وغير متوقعة وطبعه يتصف بتناقض كبير (الشجاعة والخوف والحدة والضجر) .

عفوي وغير واع : كل شعور أو رغبة جديدة يحتاج روحه ويلغي البقية .

عاطفي حساسيته على قدر كبير من التطور ويصعب علينا فهمه .

جماعي يتفاعل جماعيا أكثر منه فرديا .

ب – على الصعيد الفكري :

غير منطقي: بإمكانه أن يفكر لكنه لا يهتم بهذا الأمر كثيرا ولا يهمه أن يعرف دوافع الأشياء وكيفية حدوثها .

ساذج: لا يحاول إيجاد تفسير للأشياء بل ينتظر الحقيقة مهما كانت من الخارج ويجعل منها مبدأ له .

انطلاقا من هذه التحديدات لسمة الجزائريين يمكن على ضوئها التعامل معهم وفقا لذلك، قدمت الدراسة بعدها، مجموعة من السمات تقابلها مجموعة من الاقتراحات لكي يحسن الفرنسيون العسكريون التعامل معها من اجل إحكام سيطرتهم وفهم العقلية الجزائرية[10]، إن أهمية هذه الدراسة لا تكمن في النتائج بقدر ما تتجلى أهميتها في المعالجة المنهجية والأدوات المعرفية المطبقة في ذلك ليمكن الاستفادة منها وإعادة توظيفها بعيدا عن النظرة الاستعمارية المتعالية، وان كانت هذه الدراسة ليست الدراسة الوحيدة فيمكن إدراج معظم الأعمال التي تنتمي للحقل الاثنوغرافي والاثنولوجي ضمن هذا المسعي، والتي تغص بوصف وتحليل العديد من القضايا التي اهتمت بالإنسان والمجال .

3. الصياغة الوطنية للشخصية الجزائرية:

ردا على جل الأطروحات المقدمة ظهرت الدراسات الجزائرية التي يمكن إدراجها في إطار ما سمي بالدولة الوطنية الحديثة كردّ فعل على معظم الأطروحات سواء ما تعلق منها بمشكل الهوية أو ما تعلق بسمات الشخصية وما ارتبط منها من صفات عبر الزمن، وظهر ذلك في الدراسات العديدة التي مست مجالات مختلفة كالتربية والتعليم لدى "رابح تركي"، أو الهوية لدى كل من "بن نعمان" و"عثمان سعدي" أو إثبات مكانة الذات الجزائرية عبر التاريخ لدى "مولود قاسم نايت بلقاسم" أو حتى إعادة كتابة التاريخ الجزائري عبر حقبه بروح وطنية تصحح الكثير من المغالطات حول الأحداث والصفات كما هو موجود لدى "مبارك الميلي" أو "عبد الرحمان الجيلالي" و"محفوظ قداش" وكثيرين غيرهم، ويخرج عنهم كلهم محاولة "سليمان عشراتي" في تقديم قراءة متمعنة للشخصية الجزائرية وإعادة بنائها بروح نقدية متميزة .

ولكن أهم ما يقال حول هذه الصياغة أنها جاءت ردَّ فعل تجاه تراكم إدراكي حول الذات الجزائرية ترسب عبر الحقب الزمنية مشكلا بذلك طبقات تختلف في درجة نصاعتها وقيمتها حسب كل مرحلة زمنية، وهذا أهم ما يعاب فيها فالآراء التي تؤسس على ردود فعل هي محاولة لإثبات الذات المثبتة واقعيا(من قبيل إثبات المثبت) والدخول في ردود غير منتهية على الطروحات العديدة، هذا النموذج وإن كان قد أعفانا من كثير عناء في الرد على الطروحات المقدمة كما سبق إلا أنه أغفل السمات والخصائص المحددة خلال مرحلة الدولة الوطنية بل تعاطى معها في بعض الأحيان بنوع من التقديس والثبات مما جعل الكلام عن الشخصية باعتبارها شخصية جديدة لا تمت بصلة للماضي .

ثالث: الدراسة التحليلية :

من اجل الوقوف على محددات هذا النموذج اخترنا من بين النصوص الشعرية، نص من أكثر النصوص تعبيرا عن أبعاد الشخصية الجزائرية وسماتها تمثل في شعر مفدي زكريا وفي إلياذته خاصة، أين يقدم صورة متكاملة تأخذ بالاعتبار جل المراحل التاريخية، وهذا ما لم يتوفر في النصوص النثرية والشعرية الأخرى، وتتم هذه القراءة من خلال المحددات الثلاثة وهي مقومات الشخصية المتعارف عليها (الإسلام، العروبة، الأمازيغية)، وفق التالي :

1. الجانب الأول، النظرة الجزئية:

في صور شعرية بليغة وذات مستوي راقي من الأساليب الشعرية يفتتح الشاعر إلياذته بأبيات تمجيدية وصور تشبيهية راقية، وهذا ابتداء من الأبيات العشر الأولي حتى القصيدة السادسة ويتجلي ذلك في كثير من الأبيات والتي يمكن الاستشهاد ببعضها.

جزائر يا بدعة الفاطر ويا روعة الصانع القادري
ويا ثورة حار فيها الزمان وفي شعبها الهادئ الثائر
ويا وحدة صهرتها الخطوب فقامت على دمها الفائر
جزائر أنت عروس الدنا ومنك استمد الصباح السنا
وأنت السمو وأنت الضمير الصريح الذي لم يخن عهدنا
ومنك استمد البناة البقاء فكان الخلود أساس البناء

ويمتد هذا التمجيد حتى القصيدة الثامنة عشر، أين يقدم الشاعر صورة فريدة من نوعها تتمثل في الأبعاد الانتربولوجية التي تستمد من الفضاء الصحراوي وهي عبارة عن ما يمكن أن تفعله البيئة في ساكنها من ترسيخ للقيم وتهذيب للسلوك، وغرس للمكارم، لذلك نجده يعتز بما تتركه في الإنسان قائلا:

حيال النخيل ... وبين الرمال هنا مهبط الوحي للكائنات
ونور الهدى ومصب الكمال ومهد الرسالات للعالمين
وصرح الشموخ وعرش الجلال هنا العبقريات والمعجزات
ويلهمنا الصفو نور الهلال تبادلنا الشمس إشعاعها
ونهزأ من وثبات الغزال ونغدو فنسبق أحلامنا
وحذرنا الظل نهج الضلال وجنبنا الغدر ... ماء الغدير
وعودنا الصدق ...راعي المواشي وعلمنا الصبر ...صبر الجمال

أما بالنسبة لموقفه من القضية الأمازيغية، التي يعالجها في إطار الأحداث التاريخية، وتحديدا خلال التاريخ القديم، فانه يقدم وصفا للسكان الأصليين (الأمازيغ) بما يلي :

أبناء مازيغ قادوا الفدا وخاضوا المعامع يوم الصدام
وساقوا المقادير طوع خطاهم وشادوا البناء ... واقروا النظام
رعي الله عشرا تنافس عشرا وصان ذماما تراعي الذمام
وجلت البطولات ارض الجزائر مهد الأسود ومرتع الكرام

ويتضح موقفه أكثر من القضية الأمازيغية، عند التطرق للممالك والدول البربرية والإشادة بهم انطلاقا من ماسينيسا :

دعوا ماسينيسا يردد صدانا ذروه يخلد زكى دمـــــــانا
وخلو سفاكس يحكي لروما مدى الدهر كيف كسبنا الرهانا
وكيف غدا ظافرا ماسينيسا بزامة لم يرضي فيها الهـــوان
وكم سامـــــــوه فثار إباء واقسم أن لا يعيش جبـــــانا
وألهمه الحب نيل المعالي وقد كان مثلي يهوي الحســان
فجاء يوغرطا على هديـــه بحكم الجماهير يفشي ألامانا
وقال مدنية روما تبـــــاع لمن يشتريها ظهر الكيـــــانا
ووحد الأمازيغ عبر القرون غزا التراب وراع النـــــجوم
فكم ازعجوا نائبات الليالي وكم دوخوا المستبد الظـــلوما

فشخصية الأمازيغي ثائرة وشجاعة وأبية لا تحتمل الظلم ولها مكانة ذات قيمة وشرف بين الامم الاخرى، وهي شخصية مقاومة صامدة فهي ترفض المستعمر الأجنبي وهذا منذ القدم، وهذا الموقف

يعبر عن خطاب جاء كرد فعل عن الفكرة القائلة بان الاستعمار قدر ومكتوب على هذا الشعب فالقدر المكتوب في رأي الشاعر هو المقاومة المستمرة للغازي المستعمر من طرف الشعب الجزائري .

رغم أن الشاعر يصور لنا الأحداث التاريخية في صور مثيرة وبراقة إلا انه غض الطرف عن بعض الأمور التي تدخل ضمن مكونات الشخصية الجزائرية خلال هذه المراحل والتي أشار اليها العديد من المؤرخين، والمتمثلة في التشرذم والانقسام، فلم تخلوا تلك الفترة من التمردات والانقلابات الداخلية بين الإخوة الأشقاء، فقد ذكر الميلي أن " من أخلاق ملوك البربر التنافس والتخاذل والاستعانة بالاجنبي "، ويعترف الشاعر في الأخير بالانتماء الأمازيغي كأحد مكونات الشخصية الجزائرية قائلا :

أولئك إباؤنا منذ عيسي وكان محمد صهرا لعيسي

ويعتبرها حقيقة لا يمكن إنكارها ولا ينكرها الدين كذلك بل يعتبر أن البربر إخوة للقبيلة العربية جرهم

لئن حارب الدين خبث النفوس فلم يغبط الدين هذى النفوسا
ولم نكن ننكـــــــــــر آباءنا كانوا نصاري ام مجـــــوسا
وهل كان بربر إلا شقيقا لجرهم هلا تنسينـــــــــا الدروسا
إذا عرب الدين أصـــــــــلابنا فمازال احمد صـــهر لعيسي

هذه الأبيات قد توحي للمتلقي بأن البربر اعتنقوا الدين المسيحي وهذا تاريخيا غير صحيح، فالبربر بقوا على ديانتهم الوثنية واعتبروا المسيحية (الكاثوليك) ديانة للاستعمار الروماني اذا كان الشاعر لا ينكر الانتماء الأمازيغي فهو يحاول أن يعطيه البعد العروبي إن هناك تلاقي بين العرب والأمازيغ (البربر أشقاء جرهم)، ويقول :

وهبنا العروبة جنسا ودينا و إنما بما قد وهبنا رضينا

فالعربية لغة الدين الجديد الإسلام وكذلك انتماء، ولكن هذا الانتماء حسب الشاعر ليس مطلقا، فإذا استغل استغلالا حسنا في توحيد الصفوف ولم الشمل فهو محمود وان استغل في التفرقة فهو مذموم :

وهبنا العروبة حسبا ودينا و إن بما قد وهبنا رضينا

فالعربية لغة الدين الجديد الإسلام وكذلك انتماء، ولكن هذا الانتماء حسب الشاعر ليس مطلق فاذا استغل استغلالا حسنا في توحيد الصفوف ولم الشمل فهو محمود وان استغل في التفرقة فهو مذموم .

وهبنا العروبة حسبا ودينا وان بما قد وهبنا رضينا

اذا كان هذا يوحد صفا ويجمع شملا رفعنا جبينا
وان كان يعرب يرضي الهوان ويلبس عارا أسأنا الظنونا
وقلنا كسيلة كان مصيبا وكاهنة الحي اعلم منا
فأهلا وسهلا بأبناء عم نزلتم فاتحينا

هذه الأخوة سرعان ما ينفي عدم صحتها، حين أعاد فكرة الانفصال وأحقية زعماء البربر (كسيلة والكاهنة) في مواجهة العرب الفاتحيين في حالة رضاهم بالهوان والعار، يؤكد مرة أخري النزعة الانفصالية للبربر في سياسة ملكهم وإمارتهم حتى مع المسلمين الفاتحين في موقع آخر

وهال ابن رستم أن لا تسود وبني كيانا لنا مستقلا

وهذا ما يتوافق مع الأحداث التاريخية أين استقلت الإمارات البربرية منذ وقت مبكر من دخولها الإسلام وهذا بطبيعة الحال راجع لعدة أسباب، ويذكر مرة أخرى أهم صفات الأمازيغ بأنهم يرعون الذمام ولا ينكرون الفضل.

ونحن الأمازيغ نرعي الذمام ولا نجحد الفضل والآخرة
وخاض الأمازيغ ساح الفدا يباركهم صلوات الجدود
وآزرنا الترك حتى انتصرنا ولم يخفر الترك ماض العهود
وقمنا نسوس البلاد بعدل ونسدي الجميل ونرعي الحدود
ولم نك للترك بالتابعيين وان عززوا سعينا بالجهود
ونحن أناس نعد الجميل ونرعى ذمام الصديق الودود

ابتداء من القصيدة الثانية والسبعون، يقدم الشاعر صورة تبدو معاكسة للصورة الأولى التي رسم من خلالها سمات الشخصية الجزائرية، وكأنه يقارن بين شخصيتين (قديمة وجديدة)

طباعنا صالحات جليلة تعاف النفوس الذليلة
وتأبي رجولتنا الابتذال واحلاسه والشعور الطويلة
تخنث هذا الزمان ودبت خنافس هبي تشيع الرذيلة
ونافس ادم حواءه دلالا وغنجا وذبح الفضيلة

ويتساءل منكرا للوضعية التي أصبح عليها شباب الجزائر قائـلا :

وارض الجزائر ارض الفحول فأين الشهامة أين الرجولة

ويستنكر للأخـلاق التي ظهرت في الشباب وسبــبها.

تفسخ هذا الشباب وماعا وخرب أخلاقه وتداعي

ومستهترون أضاعوا الثنايا وشاع تنكرهم للسجايا
تفسخ هذا الشباب وماعا وخرب أخلاقه وتداعي
فويل الجزائر والمسلمين اذا دنس هذه الطباعا
ومستهترون أضاعوا الثنايا وشاع تنكرهم للسجايا
وقالوا التقدم خلع الغدار وهتك العفاف ونشر الخطايا
وجدل الشعور ولبس الحلي وحمل القلائد مثل الصبايا
ويفخرون بشرب الخمور وفي الكأس ترسب كل البلايا

ولم تمس هذه الوضعية اللباس والسلوك بل حتى الثقافة والمثقفين.

كم اندس بين المثقفين حركي فأبدل فيه اليقين بشك
يسبح يوما ويكفر عشرا ويعبث بين عفاف وهتك

ولم تسلم الكثير من المظاهر عن التغيير والخروج عن المألوف والتقاليد الأصيلة، والتي من بينها ظاهرة الزواج بالأجنبيات والتي اقبل عليها الشباب

وبعض تزوج بالأجنبية وقال مثقفة حضرية
تراقصني وتراقص هذا وذاك ويعبث عن حسن نية

ويعبر عن موقفه الذي وصل إلى مرحلة اليأس من مظاهر المجتمع الجزائري قائلا :

وتبا لمجتمع خائر يعيش الرجال به كالدمي
تعالي فرنسا ادخلي بسلام فأبناء صلبك مل الدجى
غدا بالزغاريد يستقبلون نزولك في أرضنا بعدما
ويا قادة الشعب إن دام هذا اقيموا على سمعكم مأتما

وامتد هذا الوضع ببعضهم إلى أن طعن في المقدسات وانزعج من الأذان

وأزعج قوما أذان الصلاة يجلجل في القيم الضارعات
فيلقي له السمع قلب شهيد تموج به القيم الصالحات
ويصدم أذان قوم بوقر فتفجعهم صرخات الحياة
وقرع الطبول ونفخ المزامير لم يزعج المهج الفاجرات

2. الجانب الثاني، النظرة الكلية:

إذا كان الشعر آلية من آليات التعبير، فان شاعرنا يعترف بأن شعره الموسوم بالإلياذة وان كانت لا ترقي إلى مستوي إلياذة هوميروس من ناحية الشكل عدد الأبيات (1000 بيت بالنسبة لشاعرنا)

و(16000بيت بالنسبة لهيميروس) صور فيها ملامح شعب وقصة حضارة فان شاعرنا يعترف بخروجه في أبياته الأخيرة عن المألوف من هذا الفن، أين تحول إلى النقد الاجتماعي للشباب والمجتمع ما بعد الاستقلال خاصة .

وقالوا انحرفت بإليـــــاذة تلوم الشباب ومثلك يعلو
هوميروس أرخ ...لم ينتقد وشهنامة الفرس بالوصف تعلو
فقلت وشعر الخرافات يفني وشعر البطولات لا يضمحل

إذا أخضعنا الإلياذة للتحليل الإحصائي وجدنا أن 30 %من قصائد الإلياذة تركز على النقد الاجتماعي للمجتمع الجزائري لفترة ما بعد الاستقلال خاصة وهو ما يمثل ثلث الإلياذة، بينما 70% تشيد بأمجاد الجزائر رجالا وأوطان ويمكن قراءة هذه النسب بشكل أخر وهي أن الإلياذة تحمل صورتين مختلفتين إن لم نقل متناقضين في كثير من الأحيان، فسمات الشخصية التي تم تحديدها والإشادة بها في القصائد الأولي اضمحلت وتلاشت في القصائد الأخيرة، وصورها الشاعر بأنها خروج عن المألوف وعن أصالة الشعب الجزائري، وبالتالي فقد نقل لنا الشاعر صور من الصراعات بين القديم والجديد، بل انحاز للقديم يمجده أمام التغيرات الجديدة التي مست مناحي الحياة الاجتماعية لأجيال ما بعد الاستقلال .

إن الشاعر قدم لنا صورتين عن سمات الشخصية الجزائرية تبدوان متناقضتان، وبالتحليل النص الشعري اعتمادا على وحدة القيم يمكن استخلاص النتائج التالية:

فالشخصية الأولى: أصيلة بانتمائها الضارب في عمق التاريخ، وتمتاز بالإباء والتصدي للمعتدي وشجاعة، تصون الذمم وتوفي بالعهود، صامدة أمام المكاره والأعداء، وثائرة على الغازين المعتدين، كريمة محسنة للضيف، مستقلة لا ترضي بالتبعية، حسن السياسة والتصرف، تمتاز بالتضحية والإباء والنجدة، متشبثة بقيمها الدينية وعادات إبائها .

أما الصورة الثانية لنفس الشخصية فهي: شخصية مقلدة، متشبهة بالنساء، منحلة أخلاقيا لا تبالي بالتقاليد والعادات والقيم الدينية، تؤمن بالأفكار الهدامة، تجهر بالمعصية وتكابر بها، غير مستقرة على رأي، متقلبة المزاج، ساخطة على تاريخها وأمجادها، راغبة في كل جديد وافد، ثائرة على كل أصيل قديم .

خاتمة :

يقف الشاعر موقف المدافع والمبين لملامح الشخصية الجزائرية والمشيد بها، بل يظهرها بأساليب بديعة وفنية رائعة، وهو على عكس الكثير من المثقفين لا ينكر الانتماء ذو البعد الأمازيغي منذ القديم بل يؤكده ويفتخر به في بعض الأحيان، ويقف موقفا توفيقيا بين العرب والأمازيغ، عندما ارجع انتماء الأمازيغ جنسيا للعرب، ويعترف في نفس الوقت بالدور الذي قام به العرب الفاتحين الذين نقلوا الإسلام لشعوب المغرب، ودوره في إصلاح المجتمع وإرساء قواعد السلوك الحضاري، كما ينم الشعر عن شخصية واسعة الاطلاع، مدركة للدور الحضاري والتاريخي لشعوب المنطقة ومساهمتها في الفعل الحضاري .

هوامش:

[1] احمد بن نعمان: الهوية الوطنية، (1996)، دار الأمة، (الجزائر)، ص22.

[2] المرجع نفسه، ص23

[3] محمد شفيق: ثلاثة وثلاثون قرنا من تاريخ الأمازيغيين، (2005)، (بدون مكان)، ص8.

[4] المرجع نفسه، ص6.

[5] عثمان الكعاك: البربر، (1375 هـ)، (بدون مكان)، ص26.

[6] المرجع نفسه، ص27.

[7] عبد الرحمان بوزيدة: هوية المغرب القديم، (2017)، مقالة منشورة بالمركز الوطني للبحث في الانثربولوجيا وما قبل التاريخ، ص10.

[8] المرجع نفسه، ص14.

[9] عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، (2006)، المجلد السادس، دار الكتب العلمية، بيروت، (لبنان)، ص122.

[10] فيليب لوكا وجون كلود فاتان: جزائر الانتربولوجيين، نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، (2002)، ترجمة: محمد يحياتن وآخرون، منشورات الذكري الأربعون للاستقلال، (الجزائر)، ص ص 292-293 .